الهوية وبعدها الأسلوبي في شعر فاروق شوشة.. هوية الانتماء وانتماء الهوية

د.مصعب مكي زبيبة(*)

كلمات مفتاحية: الهوية – الاسلوبية – فاروق شوشة

المخلص

يشتغل التساؤل عن العلاقة الجدليّة بين الوظيفة الأدبيّة والوظيفة الفلسفيّة على وقائع قائمة على بيان الفوارق بين معطيات كلّ ميدان، ولكنّ الجواب يتجلّى عندما نعرف أنّ الإبداع واحد، والإنسان في همومه الرئيسة واحد، وهو نفسه في النهاية في العلم والفن والفلسفة وباقي مظاهر الحضارة، نعم لكلّ علم خصوصيته وتجربته الفنيّة، وإبداعه وصياغته، ولكن في نهاية المطاف تتلاشى هذه الخصوصية في حضرة (الإنسان)، فإنّ كلّ الاتجاهات والفلسفات والمحاولات تشتغل لخدمته ومصلحته وثقافته، ومن هنا يخلق التزامل والتآخي بين النظريات والعلوم، ولهذا صار الأدب الفلسفي أدبا أولا، ثم هو فلسفي ثانيا، فهو إذ يتمثل في الأدب، رواية ومسرحا وشعرا، فإنّه يحمل أيضا بعدا فلسفيا، ويبقى مع ذلك، فنا جميلا متفردا؛ لأنه يحمل من الفلسفة تلك الـ (لماذا) المقلقة؛ هو يحمل من الفلسفة آفاقها وقضاياها وتحدياتها، وهو لذلك فلسفي، في حين يبقى له من الفن جماليته وتفرده وأصالته، ولهذا فهو أدب. فالأدب الفلسفي هو ذلك الأدب الحقيقي الذي يلتزم بجوهر الإنسان وقضيته، وهو ليس الشكل وحسب؛ بل الاكتشاف والمضمون، والقراءة المتأنية في المقدمات للوصول إلى النتائج، وهو مشروع خلق لنظرية تبرز في حياتنا الثقافية، تحمل في طياتها مفاهيمها العميقة، والتزامها الفني.

تمهيد: لماذا الأسلوبية في استيضاح الهوية؟

أجد أنّ الأقرب في تتبّع المزاوجة بين البعد النفسيّ والفلسفيّ والألسنيّ في استجلاء الهوية في الشعر؛ هي الدراسة الأسلوبيّة، بما تكتنزه من معارف إنسانيّة، وأسس حداثوية، وبدائل

(*) جامعة الكوفة- كلية الاداب

بنائيــة، فهــي ألصق في دراســة العناصر التي تنصهــر في بوتقة النفس والفلســفة؛ فصلة النقد الأدبي والفلســفة وثيقة متأطرة بالبعد المشــرق من الحضارة الإنســانية، ولعــل: ((أكبرُ حاجز آثــم كاد يطغى علــى تاريخ الفكــر العربيّ هو ذاك الــذي قام بين الفلســفة والنقــد الأدبيّ حتى إنّنا لا نكاد نعي وجود (أصوليّة) للأدب وللنقد، بل ولفلســفة المناهج نفسها، فقصُر بذلك النظر (الأصولي الإبستيمولوجي))[1] ، وبهذا خسرنا منهجاً مهماً متكاملاً فــي تحليلنا ونقدنا الأدبي، لأنّ: ((الناظر في مقوّمــات نظريّة الحداثة في النقــد والأدب يتبيَّن أنّها تســتند في مُجملها إلى مادّة وموضوع تربِطُهما عِلمانيّة المنهج))[2] ، فموضــوع مثل موضوع الهويــة والانتماء بين الإيجاب والاســتلاب مشــروع وثيــق الالتحام بالإجراء الأسلوبي الذي يجمع معطيات الأدب بالكيان الاجتماعي والنفســي؛ وعليه تمَّ دراسة هذا الموضوع الشــائك عبر منصة الأســلوبيّة، وليس نظرية مناظرة أخرى، وإن كانت البلاغة هي الأقرب لها، فالبلاغة وعلم الأسلوب ينطلقان من منطقة مشــتركة، مساحتها (الموقف)، فهما يتوافقان على أن يكون الكلام مناســبا (لمقتضى الحــال)؛ مــن أجل إيصال الخطــاب إلى متلقيه بالطريقة التي يراها المرســل مناسبة لرسالته، وهما يشــتركان أيضا في الغاية؛ لإعطاء رؤية شمولية نهائية للتراكيب المستعملة، وإجراءات المفردات فيها، بوسائل مشتركة أيضا قد تكون اســتعارية أو تشــبيهية أو كنائيــة أو مجازيــة، فضلا عن أساليب علم المعاني من حذف وتقديم وتأخير واستفهام وغيرها، فعلم الأسلوب يتعكز على قواعد البلاغة وقوانينه ومفاهيمه من أجل تكامل الصورة التحليلية لنص ما، ســواء أ كان أدبيا أو غير أدبي.

وعلى هــذا يمكن أن تكون الأســلوبية ذات أبعــاد متغيّــرة لا تتعامل مــع النصّ علــى أنّه كتلــة جامدة لا قلــب له؛ لأنّ دمه الــذي يحييه، وأقصــد بــه اللغة هو كيان متحــرك تطرأ عليه التغييرات ويتأثر بتقلبــات الزمان والبيئة وعلم الاجتماع والاقتصاد ويصيبه التخلف والتطوّر، وتختلف فــي طرائق تعبيره، مــن زمان لآخر ومن شخص لآخر، مثلما تختلف في أدائها بين جنس وآخر، فهي بالشــعر تختلف عما هي في النثــر، مثلما تصيب الإنســانية هــذه التغييرات والتقلبات، وهكــذا تكون التغييرات والتجاذبات والتطوّرات والنمو والازدهار والتلاشــي؛ لأنّ الأســلوبية ذات بعد وصفي تشتغل على المدار العلمــي البعيد عن الــذوق والانطباع، في حين أنّ البلاغــة في أفقها الدلالــي ذات بعد معياري ثابــت لا يتعامل مع المتغيّرات وتبدلات الدهر، ولهذا اخترنا المنهج الأســلوبي لإبراز التمظهر الفلسفي في استجلاء الهوية في انتمائها الإنساني الخلّاق، فلا نستطيع استجلاء قيمها الحضاريّة إلا عبر منهج يكون مشــعا في أضوائه وألوانه علــى التعبيــرات التــي أدّت إلــى وضــوح أو غموض الهوية عند الشــاعر الــذي يتمثل دور المجتمع والأمة في فنه وأدبه.

إن التساؤل عن العلاقة الجدليّة بين الوظيفة الأدبيّــة والوظيفة الفلســفيّة يشــتغل على وقائع قائمــة على بيــان الفــوارق بين معطيــات كلّ ميــدان، ولكنّ الجواب يتجلّــى عندما نعرف أنّ ((الإبداع واحد والإنســان في همومه الرئيسية واحــد، هو نفســه في النهايــة في العلــم والفن والفلســفة وباقــي مظاهر الحضــارة))[3] ، نعم لكلّ علم خصوصيتــه وتجربته الفنيّة، وإبداعه وصياغتــه، ولكن فــي نهاية المطاف تتلاشــى هــذه الخصوصية في حضرة (الإنســان)، فإنّ

كلّ الاتجاهات والفلسفات والمحاولات تشتغل لخدمته ومصلحته وثقافته، ومن هنا يخلق التزامل والتآخي بين النظريات والعلوم، ولهذا صار الأدب الفلسفي أدبا أوّلا، ثم هو فلسفي، فهو إذ يلتزم يتمثل في الأدب، رواية ومسرحا وشعرا، يحمل بعدا فلسفيا، ويبقى مع ذلك، فنا جميلا متفردا؛ لأنّه يحمل من الفلسفة تلك الـ (لماذا) المقلقة؛ هو يحمل من الفلسفة آفاقها وقضاياها وتحدياتها، وهو لذلك فلسفي، في حين يبقى له من الفن جماليته وتفرده وأصالته، ولهذا فهو أدب[٤]. فالأدب الفلسفي هو ذلك الأدب الحقيقي الذي يلتزم بجوهر الإنسان وقضيته، وهو ليس الشكل وحسب؛ بل الاكتشاف والمضمون، والقراءة المتأنية في المقدمات للوصول إلى النتائج، وهو مشروع خلق لنظرية تبرز في حياتنا الثقافية، تحمل في طياتها مفاهيمها العميقة، والتزامها الفني. ويمكن دراسة إشكالية الهوية والانتماء في شعر فاروق شوشة عبر النقاط الآتية:

أوّلا: هوية الأرض في شعر فاروق شوشة

ينتمي الفرد بحسب جماعته ومجتمعه وثقافته إلى هوية معينة، تحمل نسقا ومعايير مركزية لا تلتقي مع غيره من الأفراد الآخرين، وتكون ضاغطة بقوّة من أجل حضورها الدائم في كيانه الإنساني؛ لأنها تتغلغل في مشاعره وحياته اليوميّة من خلال تردّدها الدائم؛ لأنّها تولّدت من مجموعة من المعطيات المعقّدة المستمرة، وناتجة عبر حقب طويلة حفرت شخصيتها المميزة. والهوية لا تتولّد بين ليلة وضحاها؛ بل هي ناتجة من جراء توالد نماء مستمر داخل الكيان الوجودي للإنسان، هدفها ترسيخ وجودها واستلاب ضدّها.

فمبدأ الهوية، يدلُّ على أن الموجود هو ذاته، وهو ما هو عليه، هو عبارة عن التشخّص، الذي ينطلق إلى الوجود الخارجي، والهوية من مفهومها الفلسفي يعني كلّ نظرية لا تفرّق بين المادّة والروح، ولا بين الذات والموضوع، وتنظر إليهما على أنّهما وحدة لا يمكنها الانفصال[٥]. فالهوية تعني الماهية والوجود والصوت المعبّر عن الفرد، إذ تتّحد الصفة بالموصوف في تشخص متفرّد لا إشراك فيه، واندماج في السوسيولوجيّة والتاريخيّة لحقيقة الهوية المجتمعيّة، في صيرورتها وجدليتها الخاصّة بها، على وفق قوانين التطوّر الإنسانيّ، وقوانين الثابت والمتحوّل التي تصنع الهوية، وتعدّل على الدوام ملامحها عند الضرورة[٦].

فإن كانت الهوية هي الانتماء إلى مصدر الولادة؛ فإنّ الدفاع عنها وحضورها المتبلور مع الأحداث يكون على شكل إبداع وبصمة خاصّة لا تشبه الآخرين، فيُلغى تمظهر الوراثة، وتُصبح الأصوات المتصاعدة في داخله أصواتا متعدّدة حيّة داخليّا وخارجيّا، ويُصبح التأمّل في الوجود ومحاسبة الذات مظهرا من مظاهرها؛ لأنّ الهوية تتمحور في أشكال متعددة منها المادّيّة والرمزيّة، وهي في حركة دائمة نحو البحث عن نفسها ووجودها، تتنوّع في صورها وأشكالها، فهي الفرديّة التي تميّز الأفراد داخل المجتمع الواحد، ومنها المجتمعيّة التي تكوّن الجماعة التي تجمعهم قواسم مشتركة منها الدينيّة والتاريخيّة والثقافيّة والاقتصاديّة وغيرها، وهي السؤال المتجذّر الضارب في أعماق التاريخ، وهي العامل المؤثّر في الحضارة الذي قد يكون مستسلما نحو ضعفه وخفوته واضمحلاله؛ إذا كان أصحابها يعانون ضياع الهوية والتفكك والتهادن الحضاري، فهي تسير

على مسارات ثلاثة عند تحليلها موضوعيا: ((فهناك أوّلا، الهوية على المستوى الفردي، أي شعور الشخص بالانتماء إلى جماعة أو إطار إنسانيّ أكبر يشاركه في منظومة من القيم والمشاعر والاتجاهات، والهوية بهذا المعنى هي حقيقة فرديّة نفسيّة ترتبط بالثقافة السائدة، وبعملية التنشئة الاجتماعيّة، وهناك، ثانياً، التعبير السياسيّ الجمعيّ عن هذه الهوية في شكل تنظيمات وأحزاب وهيئات شعبيّة ذات طابع تطوعيّ واختياريّ، وهناك، ثالثاً، حال تبلور وتجسّد هذه الهوية في مؤسسات وأبنية وإشكاليّة قانونيّة على يد الحكومات والأنظمة[٧]. كلّ ذلك يولّد انتماءً قويا للأرض التي ولد الإنسان فيها، وترعرع على تربتها، يقول الشاعر:

توهجي يا أرض بالشرر

واشتعلي بالهول يا سماء

ماذا يهم.. طالما دفنت رأسي في قميص جدتي..

وغابت اليدان والعينان في الدعاء

أن يحفظ الله البلاد والعباد[٨]

فالشاعر يرمز بـ (قميص جدتي) إلى الأرض الذي نشأ بها، وإلى طفولته وإلى حبه الأول، وإلى التصاقه بالأرض وخطاه الأولى، وملامح صيرورته، وآماله، كل ذلك أراده بهذا الرمز الحيوي المشع بالدلالات، والطفولة شديدة الالتصاق بالجدة التي تعطي فيض الحنان والمحبة المترعة، وكأنها تصبح معادلا موضوعيا إلى الأرض الذي ينشأ بها الإنسان. ولهذا يكون الدعاء صادقا من شغاف القلب بأن يحفظها الله تعالى البلاد ويحفظ أهلها.. (أن يحفظ الله البلاد والعباد). ولا سيما البلاد التي تكالبت عليها الأطماع ومخالب الأعداء؛ لأنّ:

عصابة السكسون، يترعون في بلادنا

وعن بلادنا.. يدافعون!

كلّ صباح، يعبرون قريتي..

مهرولين في اتجاه بور سعيد

محنيةً ظهورهم كأنما تنوء بالذي يُحمَّلون

راجفة ضلوعهم... كأنهم للتو يصعقون..

كأنما في كل خطوة.. يضاجعون

فوهة الدمار.. والردى

فالشاعر يرمز بـ (عصابة السكسون) إلى الأقوام الجرمانية الأولى الغازية، وإلى الإمبراطوريات التي اتخذت من خيرات البلاد التي احتلتها قوتا لها ولشعوبها، في حين تبقى شعوب البلاد التي احتُلت في جوعها وفقرها وتخلفها. فتلك العصابات تترع من خيرات البلاد، حتى أصبحوا هم المدافعين عنها في مسرحية دموية تمثلها المحتل، وأصبحت قرية الشاعر معبر لأقدام الغزاة (يعبرون قريتي مهرولين في اتجاه بور سعيد)، فغدت محنية الظهر من وقع أقدام عجفاء لا رحمة لها، في تشخيص لما مرت به البلاد العربية من دمار وردى وانتهاك، إذ سجّت النازية الأممية الشعوب المستضعفة في محرقة مضرمة الأوار، وصار الأطفال والنساء والشيوخ حطبا وهشيما لتلك النار، إن القصيدة صرخة صادقة لترسيخ الهوية الوطنية، الهوية الداعية إلى العودة للاصطفاف الوطني وعودة إلى الحرية

والتحرر والجمال، إذ تتمتع الشعوب بخيرات بلادها الكثيرة، وليس المحتل.

ثانيا: هوية الضياع في شعر فاروق شوشة

ما الهوية؟، وكيف تولدت عبر هذه الحقب الطويلة؟، ولماذا تُصبح ضاغطة إذا تعرّضت للاستلاب والانهزام والتراجع؟، كلّ تلكم الأسئلة وغيرها تمثل الاتجاه لإثبات الوجود واكتساب الأحقية في الظهور والتكامل والتطوّر وانتزاع الذات، حتّى تصل في بعض مراحلها إلى اكتساب هوية المقدّس والشمول والتصالح المطلق، ولهذا تعدّدت الآراء حول تحديد مفهوم الهوية بين المتعاملين المختلفين في وصفها وتحديدها بين عالم النفس والأدب والاجتماع والأنسنة، ولهذا تثار أسئلة كبيرة بحجم وجع الأمّة في الهوية بانتظار الإجابات فهي من المسائل الشائكة المراوغة الإشكالية.

والهوية غير مختصة بالفرد وحسب، فقد تكون الأشياء لديها هويتها الخاصّة، وقد تكون الأشياء المعنوية تحمل هويتها الخاصّة، فالحضارات لها هويتها، والمدن لها هويتها، والثقافات لها هويتها، إلى آخره من الأشياء المادّيّة والمعنوية، ولكن يبقى الشخص هو من يعطي كلّ هذه الأشياء هويتها المعينة؟ نعم الهوية تميل بحسب ثقافة الإنسان ومرجعيته ومزاجه وانتمائه وشرعنته للأشياء، وإن كانت تحمل بصمتها الخاصة التي اكتسبتها عبر حقب زمنيّة طويلة وحاسمة.

ولهذا عندما يراد تعريف الهوية تثار أسئلة أكثر ممّا تُقدم إجابات؛ لأنّنا بإزاء مفهوم قلقٍ شائكٍ من الناحية النظرية[٩]. ومهما يكن من شيء يمكن رسم معلما مقاربا للهوية، فهي الخصوصيّة والتمييز على الآخرين، وهي الإحساس الذاتي للشخصيّة، وهي الحقيقة المطلقة التي لا تتجاذبها الأوهام، وهي كون الشيء نفسه، ومثيله من الوجوه جميعا، وهي الاستمرار والثبات والدوام وعدم التغيّر[١٠]. إذ بها نتصوّر الوحدة الذاتيّة، وتتبلور حقيقة الأشياء وتتميز، وهي بالضرورة لابدّ لها من قوام أو مرجعية تتفاعل معه، ولابدّ لها من استحضار في الأقوال والأفعال والظهور، ولابدّ لها من مبادئ وقيم تنتمي إليها، فهي المكان التي تسكن إليها النفس وتهدأ، وهي الاطمئنان الروحي التي يرسخ الإنسان بأرضه ووطنه.

فالهوية هي نفس الإنسان، وهي الشبيه والمثيل المطابق. فللفرد هويته والمجتمع هويته والاعتقاد هويته وللأمة هويته والحضارة هويتها، فهي الجوهر والمشترك الذي يحرّك وجدان من ينتمي إليها، وهي قطب الرحى الذي يشكل كياننا.

إنّ التغني بالأرض الذي عاش بها صباه وتكوّنت فيه شخصيته وكيانه الذاتي على الرغم من الأجواء الضبابية التي تزامنت مع تلك النشأة والصيرورة الارتباط مع تراب الوطن يجعل الغصص والخيبات المتتالية حلاوة وازدهاء، مع الترقب المستمر إلى الدعوة للتحرّر والانعتاق مع أساليب القهر والظلم والتخلف، والانهزام الداخلي، والوهن والفساد. ويبقى الطموح قائما للحرية ومعطياتها والوحدة والأمل والرفاه والرخاء، فقد كانت القصيدة منبعا خصبا لذلك الترقب والانتظار ومحطّة أمل خصبة صدح بها الشعر؛ ليتسنى ولو عبر وسائل اللغة له الانتصار من تلكم الهزائم

والآلام والمحن، لتكون اللغة هي الملاذ الأخير لإنقاذ الإنسان العربي من همومه وإسقاطاته ومأساته. يقول الشاعر فاروق شوشة[١١]:

إليك يا مسافرة

أغنية مسافرة

ليس لها أرض ولا قرار

الشطُّ ناءٍ

والمزار يا فريدتي مزار

وغنوتي قصيرة

وعابرة

لكنفي أعماقها انتظار

عندما تموت الأمنيات، ويكون الغد من دون أمل، وعندما تكون الحكايات فارغة من مضمونها، والشجن والهم يتغلغل في دواخل الإنسان العربي تصبح الأغنية مسافرة، وتصبح الأرض بلا قرار، ويصبح الشط نائيا بعيد المنال، هكذا تنكسر الانتماء على عتبات الانتظار، فالهوية على الرغم من سطوعها ونقائها في شخصية الشاعر إلا أن ضياع الأرض يجعلها بلا قرار ويجعل المواطن العربي مصابا بخيبات الأمل، يقول الشاعر:

والأحرف العجماء في سطوره شتاء

كئيبة كمقبرة

والهفتا[١٢]

والهوية هنا تصبح مسافرة مهاجرة عابرة لم يسعفها نهار، يائسا من حضورها الفاعل في ساحة الصراع الوجودي الإنساني، ولهذا يقول الشاعر:

ولا انتهت إلى كُليمة تضيءُ في الضباب

حياتي المهاجرة

إليكِ يا مسافرة[١٣]

ولهذا اللفظة يصيبها الموت قبل أن تمسها الشفة والهمسة، تختنق وملءُ صدرها الاشتعال، والتشرد من غير قرار، لتترقب النفس بانتظار فتح الباب الموصد، يقول الشاعر:

أأنت

أأنت الذي أرقب؟

على بابك الموصد

خطاي، وأمسي، ولون همومي

وطرق يدي وأمنية خفقت مرة

وغابت على حسرة المشهد[١٤]

إنّ انتظار إطلالة الرجاء، وتسرب الغد الواعد الزاهر، واستعذاب نبض الحياة المثقل بخطى الحلم الجميل، كلّ ذلك عكس الصورة القتامة التي نسجتها الظروف التي عاشها الإنسان العربي. يقول الشاعر:

بابٌ حزينٌ صامدٌ، كصفرة الشفق

عبرتُه إلى دمشق

عاريةً، كعانسٍ تحلم بالشباب

لا عارَ في دمشق

العارُ في صمت العيون قد غرق

طوفت في دمشق

فتَّشت عن فيروزتي

وكدت أن أغيب في السراب[١٥]

في لحظة ضياع الهوية تُصبح (دمشق) رمز العروبة بحضارتها وزهوها وبهائها شاحبة كصفرة الشفق، وليس العار في دمشق؛ لأنّ الإنسان المهزوز داخليا هو الذي سبّب هذا العار، وجعلها تغرق في وحل الضياع. يقول الشاعر:

مددتُ يدي

حملتُ الذي ضاعَ من وهمنا

وجئتُ إليكَ

وقفتُ على ذلك المنحنى

أنادي عليكَ

وأهتفُ: قد تَعِبَتْ مقلتايا

وأنَّ طريقا بلونِ أسايا

قطعتُ، لعلَّي أرى شاطئيك[١٦]

ففي ظلّ التوحّد والألم يجد الضياع طريقه بلون الأسى، بانتظار شواطئ الأمل والانفراج؛ لأنّ الإنسان الذي أتعبه الظلام وثقب ذاكرته النسيان لابدّ له من نشدان السلام والراحة في نهاية المطاف.

والظامئين مثلنا...

لقطرتينِ... من سلام[١٧]

لقد جاءت كلمات الشاعر حرصا على الحفاظ على الهوية الثقافية التي يراها الشاعر أمام عينيه تنهار وتتلاشى، فما كان منه إلا أن يعيد نسق كلمات في حالة من الضبابية والحزن والرومانسيّة السوداء؛ لاستنهاض الشعور بالمسؤوليّة التي يجب أن يتولّها المثقّف؛ لكونه هو من يحمل الهوية الجمعية التي تقود الأمّة نحو مصيرها بالخلاص والتحرّر؛ ليؤسّس هوية مستقلة تحمل على عاتقها بناء العقل، وترسخ هويته التي تتقاطع مع التخلف والبدائية، فالبنية الثقافية لا تتجدر إلا ببناء منظومة إنسانيّة متكاملة الأركان.

ثالثاً: اللغة معادلا موضوعيا للهوية

اللغة هي العامل الفاعل في استحضار الهوية، والقوّة الملحّة في استنهاض الانتماء في نفوس المواطن، بما تحمل اللغة من نقاء وإشعاع، ومثير موضوعي نحو التحرر والرفض الإيجابي، يقول الشاعر:

ولفظة تسقطت ... كأنها العدم

لأن في عينيك كل ما قرأتُ من عيون

وكل ما صعدت من قمم

لأن في غوريهما تتابعت ظنون[١٨]

ويقول أيضا:

ما زلت اذكر السلام، وأذكر النغم

ولفظةٌ تفجؤني، تنفضني من العدم

وموطنا على القمم

وواحةً ندية كأنها حُلُم

بالأمسِ ضمني هنيهة وطار

أدرت عينيَّ، وكدت أعانق النهار

فانسدّت الطريق بيننا كأنها جدار[١٩]

هـذه العلاقـة الوثيقـة بيـن الهويـة واللغة تجعلهمـا في انصهار واندمـاج ملتحم متداخل، فـلا يمكـن اسـتدعاء أحدهما مـن دون وجود الآخـر، هكذا كانت اللغـة الوعاء الذي ينصهر فيـه الفكر ليتفاعل مع الأشـياء؛ لتحديد سـلوك التواصـل فـي الوظيفـة التـي تؤدّيها لتبسـط مذاقهـا والخصويـة التي تتمتع بهـا في تكوين العقل الإنسـاني، والاجتماعي؛ لأنّ اللغة رؤية فلسـفية متكاملة تربـط أفراد المجتمـع الواحد وتعـزز التعدديّـة الثقافية فـي حظيرتها ضمن سـياق إنسانيّ مشترك؛ ولهذا كانت لغة الشاعر تتذكر نغمة السـلام وترفض العدم، ولهذا كانت نديـة كأنها حلـم في وطن يعانق القمم السـامقة المرتفعـة، فمعانقة النهـار تأتي عن طريق لغة الشاعر المحلاة بدفء السلام. يقول الشاعر:

حديثكِ العقيم يا ثلجية العيون

يا طالما نسجت من حروفه دراء

لاتقـي عيونهـم ... دوَّامـة السـكون بيـن واجفين[٢٠]

فباللغـة يمكـن أن يتقـي زيـف الواجفين، ويمكن بوساطتها أن ننسـج واقية ضد التراجع والانهـزام، ولهـذا لا يقبل ان تكـون لغته كلغة الآخرين، وأن يكون الحديث عقيما في استعارة لفظيـة إذ شـبه الحديـث المفرّغ مـن مضمونه بالمـرأة العقيـم، واسـتعار أيضـا الجمـود في الأفكار والـرؤى بالقول: (ثلجيـة العيون) بعد أن كان الحديـث مفعم بالحـرارة والتواصل (يا طالما نسـجت من حروفـه رداء) كناية عن أن لغتـه كانت مصدا وواقيا له من شـر الآخرين. ويقول أيضا:

وقد أقولُ ما يقول الناس ساعة ويلغطون

شيئا غريبا... شائها[٢١]

فاللغـة عندمـا تكون مجترئة معادة سـوف تُصـاب بالجفاف والتصحر؛ لأنه يسـتجلي من اللغـة روافدها المكتنزة بالفكر والتحضر... هو يريـد أن تكون لغته هويـة تميزه من الآخرين؛ فلا يريـد كلماته أن تكون سـجنه الكبير، فلابد لكلمـة أن تتحرّر من خوفهـا ومكامن تقهقرها. وربما يكون الصمت في بعض اللحظات أجدى مـن البوح، وربمـا يكون الانعـزال أفضل من حديث لا يمثل هوية المرء.

لكنني أقسمُ لكِ

بكلِّ لفظ لم أقله، لو أقوله لكان سجنيَ الكبير

فإن في ألفاظنا مكامنَ الأعداء

الصوت ليس صوتيَ القديم

ولا الحديثُ بهجتي وسلوتي

ولا الذي قلناه نمَّ عن غرامِنا الدفين[٢٢]

فمثلما تكون للغة هوية تحدّد الماهية، يكون الصمت هو الآخر هوية ترسم معالمها في الظلّ، وتسمع وقع خطواتها وحكاياتها للمتشوقين لنغم الحريـة والحراك الثـوري، فيُصبـح الصمت منطقـاً للحياة في زمن الاضطهاد والدكتاتوريّة وكتم الأفـواه، ويُصبح مدا يمحو العار ويُصبح الملاذ والانتصار القادم.

رابعا: هوية الأنا في شعر فاروق شوشة

الاهتمـام بالهوية حلقة متواصلـة في أبعاد التفكير الإنسـاني والفلسفي، إذ يكتسب الإنسان معرفتـه بالعالـم الخارجـي، ويلحظ نفسـه في

الوقت نفسه، ليتمّ نحت مفاهيم مهمة من نحو (الروح) أو (الفكر) أو (الأنا) أو (الذات)[٢٣]. وإن منظومة من المصطلحات المتقاربة التي تشتغل في العقل الإنساني من قبيل: (الأنا) و(الذات) و(الأنا الأعلى)، بما لا يمكن التفريق بينها بصورة موحدة يجعل من تشريح هذه الظواهر صورة معقّدة من التنظيرات[٢٤]. يقول الشاعر:

تنهمرُ خُيُوطُ النورِ،

يذوبُ الوجهُ الرائقُ حين يشفُّ

وها...

تتلاصقُ بعضُ ملامحِهِ،

تتقاطعُ فوق الوجه خطوطُ العُمرِ،

ويقفزُ في العينين بريق الحزن[٢٥]

فحضور الأنا التي تتماهى والحال النفسيّة التي نالها الإحباط لتُصبح خطوط العمر بريقا من الحزن، والأنا هنا لا تعطي جميع ملامحها بسهولة؛ إذ يطغى عليها معاناتها وآلامها وأحزانها، فهي بمثابة الفضاء المعبر عن انهزام جيل بأسره، أو هي السيرة الذاتيّة لمجتمع بأكمله، وهي مقاربة حية عن تجربة الشاعر، وخصوصيته الفرديّة التي تحاكي في أبعادها انتماء الشاعر لمجتمعه وأفراده، فيمكن أن نضع في مقابلها المعادلة الرياضيّة الآتية:

أنا الشاعر = انتماء الشاعر لمجتمعه

السيرة الذاتية = خصوصية الشاعر + المؤثرات الخارجيّة من بيئة ومجتمع وثقافة

لتظهر الأنا في اللاشعور محمّلة بنبرة الغموض والتغرب والانعزال الإيجابي. يقول الشاعر فاروق شوشة أيضا:

والوجه الشاحبُ آياتُكَ... وسماتُكَ؟

والصوتُ الراعشُ.. نبراتُك؟

يا ويلي، مفجوعٌ فيك..

يتدحرجُ زمني.. لا ضير!

لكن، أن تسقُطَ أنت؟

يا ربي، قد وقع المحظور[٢٦]

وهنا تكتمل صورة (الأنا) الحاضرة في الآخر، فسقوطه هو يعني سقوط الآخر، وسقوط الآخر يعني سقوطه، هذا الالتحام المصيري ولّد ملامح وجه متّحدة المعالم، حتى لتُصبح الصورة (أنا = أنت). فإنّ مركزيّة الشخصيّة في كيان الفرد الإنساني، تنمو وتفصح عن إمكاناتها من خلال بيئتها الحيطة، ووسطها الاجتماعي، ليبرز الشعور بالأنا من خلال تلازم الذات مع الآخر[٢٧]. وهذا الإسقاط في جانب الشخصيّة الغائصة في همومها والملاحقة لتكاملها تتوقف ماهيته على نظيرها في همومها وتكامل الآخر؛ لأنَّها ((آلية سيكولوجيّة لا شعوريّة تتمثل الشخص بواسطة أحد مظاهر وخصائص أو صفات شخص آخر))[٢٨] ، وقد يتماهى الشاعر مع فنه وأدبه، وهذا ما نجده عند الشاعر فاروق شوشة حين يقول:

قصيدتي حملتُ معي

يثقلُ حملُها

تسقطُ من أصابعي، ولا أعي

أظلُّ سائرا، أجرجرُ الخطى

أجرجرُ القصيدة التي تساقطت

وكلما ابعدتُ في مسيرةِ الغبار

تشققت أصواتُها

واختلطت أناتُها[٢٩]

فالشاعر هنا يأنس بأدبه وفنه، فيُحمل شعره بحقائبه في حله وترحاله؛ لأنّ الأدب مثّل هويته، وهو صورة مطابقة لشخصيته، صورة حقيقيّة غير مزيفة أو مزوقة، لتقدّم القصيدة شخصيّة الشاعر وليس العكس؛ لأنّها رسمت مفاصل ماهية الأديب وفلسفته في الحياة ومنهجه الايديولوجي.

خامسا: الهوية والانتماء في شعر فاروق شوشة

الهوية والانتماء هما الظاهرة الإنسانيّة الفطريّة التي تربط المجموعة السكانيّة، إذ يجمعهم الزمان والمكان بعلاقات توحّدهم وتشعرهم بالاطمئنان، لهم حقوق وواجبات متساوية، وهذا الانتماء يربط دوائره بالحذف والإضافة وليس الإلغاء، ولا الخلق الجديد[٣٠]. وعلى هذا تكون الأرض لها علاقة متلازمة، فضلا عن الزمان الذي يحدّد بدايتهم ونهاياتهم الوجوديّة.

ويكونا عادة من نتاج الجدليّة الإنسانيّة، التي تسعى إلى أساليب التحرّر والانفلات من قيود العبوديّة والظروف القاهرة التي تعرقل التطوّر الفكري، على الرغم من أنّ البشريّة تُولد بأجواء لا إرادية، ولكن تلزمه هذه الظروف إلى التأقلم والذوبان في بوتقة الجماعة، ولكن هذا ما يولّد الصراع والحوار والجدل المستمر، مسلحا بالمعرفة بشقيها البسيطة والعميقة للقوانين التي تحكم الطبيعة والوجود الإنسانيّ معا[٣١]. يقول الشاعر فاروق شوشة:

حين اختفى وجهك عن عيني انتحيتُ جانبا

أفردتُ نفسي جذْع ذكرى موحشة

أغمضتُ خاطري

لعلني أراك في قرارة الحزن المباغت العقيم

تمدُّ لي يدا

أسندت رأسي واتكأت، آه! هل أعودُ خائبا[٣٢]

يرمز الشاعر للانتماء الحقيقي الداخليّ بالوجه، فهو المعلم الأوضح في تكوين ملامح الشخصيّة، ولكن فقد هذا الوجه يعني فيما يعنيه الانحناء والانزواء والتقهقر، وربّما الإصابة بخيبة الأمل، وعندما تتفاعل النفس بالذكريات (الموحشة) المؤلمة سوف تصبح المشاعر مغمضة مطفأة، ينتابها الحزن العقيم الذي يضرب في قرارة النفس، وبين الرجوع بالخيبة أو الوثبة مرّة أخرى على الرغم من التحديدات الكبيرة ينتظر الشاعر يدا تمد له لترجع له انتمائه وهويته. فالانتماء في شعر (فاروق شوشة) يؤكّد حضوره في الأفكار التي تقدمها القصيدة، والقيم التي تطرحها، فهي متغلغلة بقوّة في أعماق الصور الشعريّة، والمعاني المشرعة في نبضها غير المحسوس؛ لأنّها تتدفّق بدفء إلى متلقيها ليرتوي من كلماتها الحية المتنفسة من هواء الانتماء والعقيدة وفلسفة الأنا.

نلاحظ الربط العميق ففي مظاهر القصيدة بين روح الحضارة القاسي، وما يعانيه الشاعر من أفكار ميثولوجيّة يحاول المحافظة عليها عبر

طاقته الإيجابيّة التي يعبّر عنها بوساطة الأدب، وهذا الربط الشكلي أيضا جاء عبر التوحّد في التفعيلة المتأنية المنسابة برقة المشاعر التي بثها الشاعر، لتصوّر الوجع الحاضر في النفس، إذ تحاكي الأوضاع المتردية التي تعيشها البلاد في الأصعدة كافة من انعدام للحريّة، ومن تجهم الحال الاقتصاديّة، كلّها ولّدت انفعالا زمكاني خضع للبنية الرمزيّة التي جاءت في عبارات منها: (أختفى وجهك في عيني)، (ذكرى موحشة)، (أغمضت خاطري)، (قرارة الحزن)، (هل أعود خائبا). يقول الشاعر:

أخاف أن تشدني إلى الثرى ذراعُ يومنا

وكانت السماء

توشك أن تهمَّ بالبكاء

والأفق الموشّح الإزار بالشّجى يسيلُ ذائبا

يسيل في دمي يسيل

تطفو فوقهُ رفاتُ عاشق قديم

مخضب اليدين بالدماء!

الآن يا ملاذيَ الوحيد في الزحام

أعرف أن يوميَ الكثيب مرّ فارغا

وأنني بحثت في عينيك في جنازة الغروب،

في إطلالة المدى

وأنني يشدني السكون للجنون.. للردى

أصيحُ من قرارة البئر التي تشدّنا:

(يا حزننا، يا حزننا العظيم

أما كفى ما نحن فيه)

لا يجيبني صدى!

العيبُ فينا نحن؟

أما زمانِنا،

أم عيبُ عمر ضاع في دروبنا سدى؟[٣٣]

الانتماء للمكان والزمان واضح في ثنايا المقطوعة المتقدّمة، فالثرى الذي يرمز إلى المكان يشده بذراعيه، ويأتي التساؤل نديا في إشارة إلى آلية الزمان: هل العيب فيه أم في العمر الذي أضاع مكانه ومأمنه وانتمائه الحقيقي؟، (ضاع في دروبنا سدى). فعندما يضرب الماضي بجذوره في أعماق الشاعر، ويبسط مفاهيمه على عمره الذي ذهب سدى، لا يستطيع استعادة أيّامه الحافلة بالمستقبل، لتعود به الذكريات صاخبة ملحة، فإطلالة الصورة الشعريّة الرمزيّة التي تشير إلى انتمائه العميق إلى زمكانية أمّته وحاضرته تعبّر عن هموم جماعته وجيله، ليس تعبيرا فرديا منزويا، بل تعبيرا مشعا بالانتماء الحقيقي للجماعة، وهنا تتداخل المشاعر فيلقي اللوم على عمره الذي أضاع طريقه في خضم التحديات والصدمات المتتالية. والشعر المعاصر مشحون بهذه المعاني العميقة برمزيتها والانشداد للأرض والزمان؛ لأنّ ((الشعر يمكن أن [يُساهم] في كتابة تاريخ حضارة معينة دون أن يقصد إلى ذلك، وهكذا يُصبح الشاهد الأمين على أحداث معينة، وما ملاحم الشعوب المختلفة إلّا عبارة عن أشعار يتداخل فيها الشعري بالتاريخي))[٣٤]. وهنا يتمّ الانتقال الفكريّ الفاعل لإنتاج انتماء آخر أكثر ملائمة لمتطلبات العصر الذي يعيشه الشاعر ويذوب في أرضه ويستقر في هدوئه وسؤدده.

الخاتمة:

١ـ كانت الدراسة الأسلوبيّة محطّة مهمّة في دراسة شائكة مثل موضوع (الهوية)، فهي وثيقة الارتباط بالموضوعات التي لها فضاء فلسفي إنساني، وأنّ الحاجز الذي بني خلال حقب الظلام الحضاري العربي كان شديد الضرر على المنظومة الفكريّة النقديّة، ولهذا عوّضت الدراسة النقديّة الأسلوبيّة بعض هذه الخسائر التي تكبدتها النظريّة الجماليّة.

٢ـ تضمّنت قصائد الشاعر (فاروق شوشة) الهوية الوطنيّة الصادقة الداعية إلى التحرّر من قيود الاستعباد والاحتلال، وكسب هوية التحرّر والاستقلال، فقد انطلقت من رؤية فلسفيّة تؤكد التلاحم بين شعوب الأمّة العربيّة التي تجمعهم هوية اللغة والدين والعروبة.

٣ـ نتيجة للظروف الضاغطة على الإنسان العربي، والنزعة الذاتيّة في مقاومة تلك الظروف القاهرة، تنشأ الهوية الرافضة لكلّ أساليب القهر والاستبداد، وتُصبح إرادة التمرّد هي الطاغية على هذه الهوية التي ظهرت في شعر فاروق شوشة على شكل موازٍ الضياع، التي أصبحت هوية أمّة ومجتمع، وليس أفراداً وحسب، إنّها الهوية الناتجة من جوهر المعاناة والصعوبات، ولهذا كان التعبير عنها تعبيرا يصوّر صيرورة ترقب الحرية والانعتاق من سوط الجلاد.

٤ـ كانت لغة الشاعر التي مارسها في كيان الهوية الفكريّة والفلسفيّة والاجتماعيّة تسكب الروح الإنسانيّة على الأنساق اللغويّة والفكريّة، فقد شكّلت في بنائها ومحتواها الثقافي استظهارا لعقل الأمّة، فاللغة صورة للعقل، والعقل هو صورة للغة، في جدليّة فلسفيّة تربط العقل واللغة في ميثاق التواصل، لا يقبل التشظي والتفكّك والتجزؤ، فاللغة ليست التنوّع الصوتيّ والصرفيّ والنحويّ والدلاليّ والتركيبيّ وحسب، بل هي فهم للعالم الداخليّ والخارجيّ، وهي هوية الشعوب المختلفة.

٥ـ مثلت ثنائيّة (الأنا والآخر) في شعر فاروق شوشة رؤية فلسفيّة تقترب من المفهوم المعرفيّ للذات والغير، إنسانيّا واجتماعيّا وحضاريّا وثقافيّا، فجوهر الذات ينبع من الواقع ويرتبط وجوده بالطبيعة وقيمة الإنسانيّة، وهي التي ترتفع بالإنسانية إلى فوق نفسها عند تحفيز ملكاتها المطلقة التي تستقي كينونتها من مبادئ الأخلاق والكرامة والحريّة والاستعداد للاستعلاء الإيجابي والتطوّر.

٦ـ الانتماء في الشعر الحديث، ولاسيّما في شعر فاروق شوشة مثّل هوية الوطن والمكان والزمان؛ ليتجاوز حدود النفس ليلتقي مع الآخر في مساحات من التسامح والتآخي والحضور الفاعل، وهو بمثابة الدواء الذي يبرئ التناحر والتشظي والانعزال السلبيّ، فهو التكامل الروحيّ والترابط الذي يمدّ الأرض صلابتها، وثورتها، وهزم يأسها.

الهوامش والمصادر

(١) المسـدّي، عبد السـلام، الأسلوبية والأسلوب، الدار العربية للكتاب، ط٣، (د.ت): ١٨ـ ١٩.

(٢) الأسلوبية والأسلوب: ١٩.

(٣) شـيّا، محمد شـفيق، في الأدب الفلسـفي، مؤسسـة نوفل، بيروت ـ لبنان، ط١، ١٩٨٠م: ١٠

(٤) ظ: في الأدب الفلسفي: ١٣ـ ١٤.

(٥) ظ: بعلبكي، أحمد وآخرون، تحرير وتقديم: رياض زكي قاسـم، الهويّـة وقضاياها فـي الوعي العربي المعاصـر، سلسـلة كتب المسـتقبل العربـي؛ ٦٨، مركز دراسات الوحدة العربية، لبنان، ط١، ٢٠١٣: ٢٣.

(٦) ظ: الهويّـة وقضاياها في الوعي العربي المعاصر: ٢٤.

(٧) هـلال، علـي الدين، جامعة الـدول العربية، الواقع والطمـوح، مركـز دراسـات الوحـدة العربيـة في تونس، بيروت، ط١، ١٩٨٣: ٨١٥.

(٨) شوشـة، فاروق، الأعمال الشعرية، القاهرة ، الهيأة المصرية العامة للكتاب، ٢٠٠٨م: ٢١٩.

(٩) ينظر: مسـيهر، خليل نوري، الهوية الإسلامية في زمن العولمـة الثقافية، مركز البحوث والدراسـات الإسلامية، العراق ، ط١، ٢٠٠٩م: ٤١.

(١٠) ينظر: الهوية الإسـلامية في زمن العولمة الثقافية: ٤٢.

(١١) الأعمال الشعرية: ١١.

(١٢) الأعمال الشعرية: ١٢.

(١٣) الأعمال الشعرية: ١٣.

(١٤) الأعمال الشعرية: ١٦.

(١٥) الأعمال الشعرية: ٢٥.

(١٦) الأعمال الشعرية: ٣٠.

(١٧) الأعمال الشعرية: ٣٦.

(١٨) الأعمال الشعرية: ٢٠.

(١٩) الأعمال الشعرية: ٢٢.

(٢٠) الأعمال الشعرية: ٣٧ـ ٣٨.

(٢١) الأعمال الشعرية: ٣٨.

(٢٢) الأعمال الشعرية: ٣٩.

(٢٣) ينظر: بيتر كوزين، تر: د. سامر جميل رضوان، البحـث عن الهوية (الهوية وتشـتتها في حياة إيريك ايركسـون وأعماله)، دار الكتـاب الجامعي، العين، دولة الامارات، ط١، ١٤٣٠هـ/ ٢٠١٠م: ١٠١.

(٢٤) ينظر: البحث عن الهوية: ١٠٠ـ ١٠١.

(٢٥) الأعمال الشعرية: ٥٨٦.

(٢٦) الأعمال الشعرية: ٥٨٤.

(٢٧) ينظر: الذويخ، سعد فهد، صورة الآخر في الشعر العربي، عالم الكتب الحديثة للنشر والتوزيع، عمان ط١، ٢٠٠٩: ١٠.

(٢٨) صورة الآخر في الشعر العربي: ٨٢.

(٢٩) الأعمال الشعرية: ٥٧٢

(٣٠) اسليم، فاروق أحمد، الانتماء في الشعر الجاهلي، منشورات اتحاد الكتاب العربي، ١٩٩٨م: ١٤.

(٣١) ظ: الانتماء في الشعر الجاهلي: ١١.

(٣٢) الأعمال الشعرية: ٣٣٤.

(٣٣) الأعمال الشعرية: ٣٣٥ـ ٣٣٦.

(٣٤) خمـري، حسـين، الظاهـرة الشـعرية العربيـة ـ الحضور والغياب، منشورات اتحاد الادباء العرب، ٢٠٠١م: ٥٧.

A Stylistic Approach of Identity in Farouq Shosha Poetry:

Identity of Belonginess and Belonginess of Identity

Asst. Prof. Dr. Mussab Meki Zabeeba

Abstract

The question about the dialectical relationship between the literary function and the philosophical function has been based on facts which clarify the differences between the data of each domain. However، the answer is evident when we know that creativity is one، and man in his main concerns is one، and he is the same in the end in science، art، philosophy and the rest of the manifestations of civilization. Each science has its special nature، its artistic experience، creativity and its formulation، but in the end، this specificity vanishes in the esteemed presence of (the human being). All trends، philosophies and attempts work to serve him، his interests and his culture. From here، the correlation and brotherhood between theories and sciences have been created; and for these reasons، philosophical literature becomes، first، literature، and second، philosophical; as it is represented in literature، novel، theater and poetry، it also carries a philosophical dimension، and with that، it remains a beautiful and unique art; Because it carries from philosophy that (why) worrying، it borrows from philosophy its horizons، issues and challenges، and it is therefore philosophical، while art remains for its aesthetic، uniqueness and originality، and therefore it is literature. Philosophical literature is that real literature that grasps the essence and cause of man، and it is not only form، rather، it is discovery، content، and a careful reading of the premises to reach the conclusions. Finally، it is a project to create a theory that arises in our cultural life، carrying its in–depth concepts and artistic commitment.

Keywords: Identity Stylistics Farouq Shosha